شهرٌ للثَّورة[١]
فلسفة الصيام

لم أقرأ لأحدٍ قولاً شافياً في فلسفةِ الصَّوم ، وحكمتِه ؛ أمَّا منفعتُه للجسم ، وأنَّه نوعٌ من الطِّب له ، وبابٌ من السِّياسة في تدبيره ؛ فقد فرغ الأطباءُ من تحقيق القول في ذلك ؛ وكأنَّ أيامَ هذا الشَّهر المبارك إن هي إلا ثلاثون حبَّةً تؤخَذُ في كلِّ سنة مرَّةً لتقوية المعدة ، وتصفية الدَّم ، وحياطةِ أنسجة الجسم ؛ ولكنَّا الآن لسنا بصَدَدٍ من هذا ، وإنَّما نستوحي تلك الحقيقةَ الإسلاميَّة الكبرى ؛ الَّتي شَرَعت هذا الشَّرعَ لسياسة الحقائق الأرضيَّة الصَّغيرة ، عاملةً على استمرارِ الفكرة الإنسانيَّة فيها ، كي لا تتبدَّلَ النَّفسُ على تغيُّرِ الحوادث ، وتَبَدُّلِها ، ولكيلا تجهل الدُّنيا معانيَ التَّرقيع ؛ إذ أتت على هذه الدُّنيا معاني التَّمزيق .

من معجزات القرآن الكريم : أنَّه يدَّخرُ في الألفاظِ المعروفةِ في كلِّ زمنٍ ، حقائقَ غيرَ معروفةٍ لكلِّ زمن ، فيُجلِّيها لوقتها حين يَضِجُّ الزَّمانُ العلميُّ في مَتَاهَتِه ، وحَيْرَته ، فيَشْغَبُ[٢] على التَّاريخ وأهلِه مُسْتَخِفّاً بالأديان ، ويذهبُ يتتبَّعُ الحقائق ، ويستقْصِي في فنون المعرفة ؛ ليستخلصَ من بينِ كُفرٍ ، وإيمانٍ ديناً طبيعيّاً سائغاً ، يتناولُ الحياةَ أوَّلَ ما يتناولُ ، فيضبِطُها بأسرار العلم ، ويوجِّهُها بالعلم إلى غايتها الصَّحيحة ، ويضاعفُ قُواها بأساليبه الطَّبيعية ، ليحقِّقَ في إنسانيةِ العالَم هذه الشَّيْئيَّةَ المجهولةَ التي تتوهمُها المذاهبُ الاجتماعيَّة ولم يهتدِ إليها مذهبٌ منها ، ولا قارَبَها ؛ فما برحتْ سعادةُ الاجتماع كالتَّجربة العلميَّة بين يَدي علمائها : لم يحقِّقوها ، ولم ييأسوا منها ، وبقيت تلك المذاهبُ كعقارب السَّاعة في دَوْرَتها : تبدأ من حيثُ تبدأ ، ثمَّ لا تنتهي إلا إلى حيثُ تبدأ . . .

* * *

---

(١) كتبها في شهر رمضان سنة (١٣٥٣هـ) ، وانظر « عود على بدء » من كتاب : حياة الرافعي . (س) .

(٢) « يشغب » : الشَّغْبُ والشَّغَب : تهييج الشَّرِّ ، وإثارة الفتن .

يضطربُ الاشتراكيُّون في أوربة ، وقد عجزوا عجزَ مَن يحاول تغيير الإنسانِ بزيادةٍ ، ونقصٍ في أعصابه ؛ ولا يزال مذهبهُم في الدُّنيا مذهبَ كُتُبٍ ورسائل ؛ ولو أنَّهم تدبَّروا حكمةَ الصَّوم في الإسلام ؛ لرأوا هذا الشَّهر نظاماً عمليّاً من أقوى وأبدع الأنظمة الاشتراكيَّة الصَّحيحة : فهذا الصَّومُ فقرٌ إجباريٌّ تَفرضُه الشَّريعةُ على النَّاسِ فَرضاً ليتساوَى الجميعُ في بواطِنهم ، سواءٌ منهم مَن مَلَك المليونَ من الدَّنانير ، ومَن ملك القِرشَ الواحد ، ومَن لم يملك شيئاً ؛ كما يتساوَى النَّاسُ جميعاً في ذهاب كِبريائهم الإنسانيَّة بالصَّلاة ، الَّتي يفرضُها الإسلامُ على كلِّ مسلمٍ ؛ وفي ذهاب تَفاوُتِهم الاجتماعيِّ بالحجِّ ؛ الَّذي يفرضُه على مَنِ استطاع .

فقرٌ إجباريٌّ يراد به إشعار النَّفسِ الإنسانيَّةِ بطريقةٍ عمليَّةٍ واضحةٍ كلَّ الوضوح : أنَّ الحياةَ الصَّحيحةَ وراءَ الحياة ، لا فيها ، وأنَّها إنَّما تكونُ على أتمِّها حين يتساوَى النَّاسُ في الشعور ، لا حين يختلفون ، وحين يتَعاطَفُون بإحساس الألم الواحدِ ، لا حين يتنازَعون بإحساس الأهواء المتعدِّدة .

ولو حقَّقْتَ ؛ رأيتَ النَّاسَ لا يختلفون في الإنسانيَّة بعقولهم ، ولا بأنسابهم ، ولا بمراتبهم ، ولا بما ملكوا ؛ وإنَّما يختلفون ببطونهم ، وأحكام هذه البطون على العقل والعاطفة ؛ فمن البطن نَكْبَةُ الإنسانيَّة ، وهو العقلُ العمليُّ على الأرض ؛ وإذا اختلف البطنُ والدِّماغُ في ضرورةٍ ، مدَّ البطنُ مَدَّهُ من قُوَى الهضم ، فلم يُبْقِ ولم يَذَرْ .

ومن ها هنا يتناولُه الصَّوم بالتَّهذيب ، والتأديب ، والتَّدريب ، ويجعل النَّاسَ فيه سواءً : ليس لجميعهم إلا شعورٌ واحدٌ ، وحِسٌّ واحدٌ ، وطبيعةٌ واحدةٌ ، ويُحْكِم الأمر ، فيحولُ بين هذا البطنِ وبين المادَّة ، ويبالغُ في إحكامه ، فيُمسِكُ حَواشيَه العصبيَّةَ في الجسم كلِّه ، يمنعُها تغذيتَها ، ولذَّتَها حتَّى نَفْثَةً مِنْ دَخينةٍ[1] .

وبهذا يضَعُ الإنسانيةَ كلَّها في حالةٍ نفسيةٍ واحدةٍ تَتلَبَّسُ بها النَّفسُ في مشارق الأرضِ ومغارِبها ، ويُطْلق في هذه الإنسانيَّةِ كلِّها صوتَ الرُّوح يُعلِّم الرحمةَ ، ويدعو إليها ، فَيُشْبِعُ فيها بهذا الجوعِ فكرةً معيَّنةً ، هي كلُّ ما في مذهب الاشتراكيَّة من الحقِّ ، وهي تلك الفكرةُ ؛ التي يكون عنها مساواةُ الغنيِّ للفقير من طبيعته ،

---

(١) « الدخينة » : كلمةٌ وضعناها للسِّيجارة ، وجَمْعُها : دخائن . (ع) .

واطمئنان الفقيرِ إلى الغنيِّ بطبيعته ؛ ومن هذين : (الاطمئنان ، والمساواة) ، يكون هدوءُ الحياة بهدوء النَّفسين ، اللَّتين هما السَّلْبُ ، والإيجابُ في هذا الاجتماع الإنسانيِّ ؛ وإذا أنت نزعتَ هذه الفكرةَ من الاشتراكيَّة ؛ بقي هذا المذهبُ كلُّه عَبَثاً من العبَث في محاولة جعْلِ التَّاريخ الإنسانيِّ تاريخاً لا طبيعةَ له .

* * *

من قواعد النَّفس : **أنَّ الرَّحمةَ تنشأ عن الألم ، وهذا بعضُ السِّرِّ الاجتماعيِّ العظيم في الصَّوم** ؛ إذ يبالغُ أشدَّ المبالغة ، ويدقِّق كلَّ التَّدقيق في منع الغذاء ، وشبهِ الغذاء عن البطن ، وحواشيه مدَّةً آخرُها آخرُ الطَّاقة ؛ فهذه طريقةٌ عمليَّةٌ لتربية الرَّحمةِ في النَّفس ، ولا طريقةَ غيرُها إلا النَّكباتُ ، والكوارثُ ؛ فهما طريقتان كما ترى : مُبصِرةٌ ، وعمياء ، وخاصَّةٌ ، وعامَّة ، وعلى نظامٍ ، وعلى فَجْأة .

ومتى تحقَّقتْ رحمةُ الجائعِ الغنيِّ للجائع الفقير ؛ أصبح للكلمة الإنسانيَّةِ الدَّاخليةِ سلطانُها النَّافذ ، وحَكم الوازعُ النفسيُّ على المادَّة ، فيسمع الغنيُّ في ضميره صوتَ الفقير يقول : « أعطني » . ثُمَّ لا يسمع منه طلباً من الرَّجاء ، بل طلباً من الأمر لا مفرَّ من تلبيته ، والاستجابةِ لمعانيه ، كما يُواسي المبتَلَى مَنْ كان في مثل بلائه .

أيَّةُ معجزةٍ إصلاحيَّة أعجبُ من هذه المعجزة الإسلاميَّة ؛ الَّتي تقضي أن يُحذَفَ من الإنسانيَّة كلِّها تاريخُ البطن ثلاثين يوماً في كلِّ سنةٍ ، ليحِلَّ في محلِّه تاريخُ النَّفس[(١)] ؟ وأنا مُسْتيقِنٌ : أنَّ هناك نسبةً رياضيَّةً هي الحكمة في جعل هذا الصَّوم شهراً كاملاً من كل اثني عشر شهراً ، وأنَّ هذه النِّسبةَ متحقِّقةٌ في أعمال النَّفس للجسم ، وأعمالِ الجسم للنَّفس ؛ كأنَّه الشَّهرُ الصِّحِّيُّ ؛ الذي يفرضه الطِّبُّ في كلِّ سنةٍ للرَّاحة والاستجمام ، وتغييرِ المعيشة ، لإحداثِ التَّرميم العصبيِّ في الجسم ، ولعلَّ ذلك آتٍ من العلاقة بين دَوْرة الدَّم في الجسم الإنسانيِّ وبين القمر منذ يكون هلالاً إلى أن يدخل في المُحَاق[(٢)] ؛ إذ تنتفخ العروقُ ، وتَربو في النِّصف الأوَّل من

---

(١) أفسد ضَعْفُ النفوس هذا المعنى ، فما يحقق الناس (تاريخ البطن) كما يحققونه في شهر رمضان ، وهم يُعوِّضون البطن في الليل ما منعوه في النهار ؛ حتى جعلوا الصومَ تغييراً لمواعيد الأكل ، ولكنَّ الصوم على ذلك لم يحرمهم فوائده . (ع) .

(٢) « المُحاق » : والمِحاق ، والمَحاق : آخر الشهر القمري حيث لا يظهر القمر . أو أن=

الشَّهر كأنَّها في (مَدٍّ) من نور القمر ما دام هذا النُّورُ إلى زيادة ، ثُمَّ يراجِعُها (الجَزْرُ) في النِّصف الثاني حتَّى كأنَّ للدَّم إضاءةً ، وظلاماً . وإذا ثبت أنَّ للقمر أثراً في الأمراض العصبيَّة ، وفي مدِّ الدَّم ، وجَزرِه[1] ، فهذا من أعجب الحكمة في أن يكونَ الصِّيامُ شهراً قمريّاً دون غيره .

وفي ترائِي الهلالِ ، ووجوبِ الصوم لرؤيته معنىً دقيقٌ آخر ، وهو ـ مع إثبات رؤية الهلالِ ، وإعلانِها ـ إثباتُ الإرادة ، وإعلانُها ، كأنَّما انبعثَ أوَّلُ الشُّعاع السَّماويِّ في التَّنبيه الإنسانيِّ العامِّ لفروض الرَّحمة ، والإنسانيَّة ، والبرِّ .

وهنا حكمةٌ كبيرةٌ مِن حِكَم الصَّوم ، وهي عملُه في تربية الإرادة ، وتقويتها بهذا الأسلوب العمليِّ ؛ الَّذي يُدَرِّبُ الصَّائم على أن يمتنع باختياره من شهوَاته ، ولذَّةِ حيوانيَّته ، مُصِرّاً على الامتناع ، مُتَهيِّئاً له بعزيمته ، صابراً عليه بأخلاق الصَّبر ، مُزاوِلاً في كلِّ ذلك أفضلَ طريقةٍ نفسيَّةٍ لاكتساب الفكرة الثَّابتةِ ، ترسَخُ ، لا تتغيَّر ، ولا تتحوَّل ، ولا تعدو عليها عوادي الغريزة .

وإدراكُ هذه القوَّة من الإرادة العمليَّة منزلةٌ اجتماعيَّة ساميةٌ ، هي في الإنسانيَّة فوق منزلة الذَّكاء ، والعلم ، ففي هذين تَعرض الفكرةُ مارَّةً مُرورَها ، ولكنَّها في الإرادة تعرِض لتستقرَّ ، وتتحقَّق . فانظر في أيِّ قانونٍ من القوانين ، وفي أيَّة أمَّةٍ من الأمم تجدُ ثلاثين يوماً من كلِّ سنةٍ قد فُرضت فرضاً لتربية إرادة الشَّعب ، ومزاولتِه فكرةً نفسيَّةً واحدةً بخصائصها ، ومُلابساتها حتَّى تستقرَّ ، وترسخَ ، وتعودَ جزءاً من عمل الإنسان ، لا خيالاً يمرُّ برأسه مَرّاً ؟

أليستَ هذه هي إتاحةَ الفرصةِ العمليَّةِ ؛ التي جعلوها أساساً في تكوين الإرادة ؟ وهل تبلغ الإرادةُ فيما تبلغ أعلى من منزلتها حين تجعل شهواتِ المرء مُذْعِنَةً لفكرِه ، منقادةً للوازع النَّفسيِّ فيه ، مُصَرَّفَةً بالحسِّ الدِّينيِّ المسيطِرِ على النَّفس ومشاعِرِها ؟

أما واللهِ ! لو عمَّ الصَّومُ الإسلاميُّ أهلَ الأرض جميعاً ؛ لآلَ معناه أن يكون

= يستتر القمر ليلتين ، فلا يُرى غدوةً ولا عشيَّةً .

(١) قال الجاحظ في الحيوان : « ولزيادة القمر حتى يصير بدراً أثرٌ بيِّنٌ في زيادة الدماء ، والأدمغة ، وجميع الرطوبات » . (ع) .

إجماعاً من الإنسانيَّة كلِّها على إعلان الثَّورة شهراً كاملاً في السَّنة ، لتطهير العالم من رذائله ، وفساده ، ومَحْق الأثَرَة ، والبُخل فيه ، وطَرْح المسألةِ النفسيَّة ليتَدَارَسَها أهلُ الأرض دراسةً عمليَّةً مدَّةَ هذا الشهر بطوله ، فيَهبطُ كلُّ رجُلٍ ، وكلُّ امرأةٍ إلى أعماق نفسِه ومَكامِنِها ، ليختبرَ في مصنع فكرِه معنى الحاجة ، ومعنى الفقر ، وليفهمَ في طبيعة جسمه ـ لا في الكتب ـ معانيَ الصَّبرِ والثَّباتِ ، والإرادة ، وليبلغَ من ذلك وذلك درجاتِ الإنسانيَّة ، والمواساة ، والإحسان ، فيُحقِّق بهذه وتلك معانيَ الإخاء ، والحرِّية ، والمساواة .

شهرٌ هو أيامٌ قلبيَّةٌ في الزَّمن ؛ متى أشرفَتْ على الدُّنيا ؛ قال الزَّمنُ لأهله : هذه أيامٌ من أنفسِكم ، لا من أيامي ، ومن طبيعتكم لا من طبيعتي ؛ فيُقْبِلُ العالَمُ كلُّه على حالةٍ نفسيَّةٍ بالغةِ السُّمُوِّ ، يتعهَّدُ فيها النَّفسَ برياضتها على معالي الأمور ومكارمِ الأخلاق ، ويفهم الحياةَ على وجهِ آخر غيرِ وجهِها الكالح ، ويراها كأنَّما أجِيعَتْ من طعامها اليوميِّ ، كما جاع هو ، وكأنَّما أُفْرِغَتْ من خَسائسِها ، وشهواتها ، كما فَرَغَ هو ، وكأنَّهما أُلْزِمَتْ معانيَ التَّقوى ، كما أُلْزِمَها هو . وما أجملَ ، وأبدع أن تَظهرَ الحياةُ في العالَم كله ـ ولو يوماً واحداً ـ حاملةً في يدها السُّبْحة . . . ! فكيف بها على ذلك شهراً من كلِّ سنة ؟

إنَّها والله ! طريقةٌ عمليَّةٌ لرسوخ فكرةِ الخير ، والحقِّ في النَّفس ؛ وتطهيرِ الاجتماع من خسائس العقل الماديِّ ؛ وردٌّ هذه الطبيعة الحيوانيَّةِ المحكومةِ في ظاهرها بالقوانين ، والمحرَّرةِ من القوانينِ في باطنها ـ إلى قانونٍ من باطنها نفسِه يُطهِّرُ مشَاعرَها ، ويسمو بإحساسها ، ويَصْرِفُها إلى معاني إنسانيَّتها ، ويُهذِّب من زياداتها ، ويحذف كثيراً من فُضُولها ، حتَّى يرجعَ بها إلى نحوِ من بَراءة الطُّفولة ، فيجعلَها صافيةً مُشْرِقةً بما يجتذبُ إليها من معاني الخير ، والصَّفاء ، والإشراق ؛ إذ كان من عمل الفكرة الثَّابتةِ في النَّفس أن تدعوَ إليها ما يلائمها ، ويتَّصلُ بطبيعتها من الفِكَرِ الأخرى . والنَّفسُ في هذا الشهر مُخْتَبَسَةٌ في فكرة الخير وحدَها ، فهي تبني بناءَها من ذلك ما استطاعت .

هذا على الحقيقة ليس شهراً من الأشهر ، بل هو فصلٌ نَفسانيٌّ كفصول الطَّبيعة في دَوَرَانها ؛ ولَهُوَ والله ! أشبهُ بفصلِ الشِّتاء في حلوله على الدُّنيا بالجوِّ الذي من طبيعته السُّحُبُ ، والغَيْث ، ومن عمله إمدادُ الحياة بوسائلَ لها ما بعدها إلى آخر

السَّنة ، ومن رياضته أن يَكْسِبَها الصَّلابةَ ، والانكماش ، وَالخفَّة ، ومن غايته إعدادُ الطَّبيعةِ للتفتُّح عن جمالِ باطنِها في الرَّبيع ؛ الذي يتلوه .

وعجيبٌ جِدّاً : أنَّ هذا الشَّهرَ ؛ الذي يَدَّخر فيه الجسمُ من قواه المعنويَّة فيُودِعُها مَصْرِفَ روحانيَّته ، لِيجدَ منها عند الشَّدائد مَدَدَ الصَّبر ، والثَّبات ، والعزم ، والجلَد ، والخشونة ـ عجيبٌ جِدّاً : أنَّ هذا الشهرَ الاقتصاديَّ هو من أيام السَّنة كفائدة ٨,٣ في المئة . . . فكأنَّه يسجِّلُ في أعصاب المؤمن حسابَ قوَّتِه ، وربحه ، فله في كلِّ سنةٍ زيادة ٨,٣ من قوَّته المعنوية الرُّوحانيَّة .

وسحْرُ العظائم في هذه الدُّنيا إنَّما يكون في الأمَّة التي تعرف كيف تدَّخر هذه القوَّة ، وتوفِّرها لتستمدَّها عند الحاجة ، وذلك هو سِرُّ أسلافنا الأوَّلين ؛ الذين كانوا يجدون على الفقر في دمائهم ، وأعصابهم ما تجدُ الجيوشُ العظمى اليوم في مخازن العَتَاد ، والأسلحة ، والذَّخيرة .

* * *

كلُّ ما ذكرتُه في هذا المقال من فلسفة الصَّوم ؛ فإنَّما استخرجتُه من هذه الآية الكريمة : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] . وقد فهمها العلماء جميعاً على أنَّها معنى « التَّقوى » ، أمَّا أنا فأوَّلْتُها من « الاتِّقاء » ؛ فبالصَّوم يَتَّقي المرءُ على نفسِه أن يكونَ كالحيوان ؛ الَّذي شريعتُه مَعِدَتُه ، وَألا يُعامِلَ الدُّنيا إلا بمواد هذه الشَّريعة ؛ ويتَّقي المجتمعُ على إنسانيَّته ، وطبيعتِه مثلَ ذلك ، فلا يكون إنسانٌ مع إنسانٍ كحمارٍ مع إنسانٍ : يبيعه القوَّةَ كلَّها بالقليل من العَلَف .

وبالصَّوم يَتَّقِي هذا ، وهذا ما بين يديه ، وما خلفَه ، فإنَّ ما بين يديه هو الحاضرُ من طباعه ، وأخلاقِه ، وما خَلْفَه هو الجِيلُ ؛ الذي سيرِثُ من هذه الطِّبَاعِ ، والأخلاق ، فيعمل بنفسه في الحاضر ، ويعمل بالحاضرِ في الآتي[1] .

---

(١) يُفسِّر القرآنُ بعضُه بعضاً ، ومن معجزاته في هذا التأويل الذي استخرجناه : أنه يؤيده بالآية الكريمة في سورة يس : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [يس : ٤٥] .

ويشير إلى هذا التأويل قول النبي ﷺ : « إنما الصَّومُ جُنَّة ـ بضم الجيم ـ فإذا كان أحدُكم=

وكلُّ ما شرحناه فهو اتِّقاءُ ضررٍ لجلْبِ منفعةٍ ، واتِّقاءُ رذيلةٍ لجلب فضيلةٍ ؛ وبهذا التَّأويل تتوجَّه الآيةُ الكريمةُ جهةً فلسفيَّةً عاليةً ، لا يأتي البيانُ ، ولا العلمُ ، ولا الفلسفةُ بأوجزَ ، ولا أكملَ من لفظها ؛ ويتوجَّهُ الصِّيامُ على أنَّه شريعةٌ اجتماعيَّةٌ إنسانيَّةٌ عامَّةٌ ، يتَّقي بها الاجتماعُ شرورَ نفسِه ؛ ولن يتهذَّبَ العالَمُ إلا إذا كان له مع القوانين النَّافذةِ هذا القانونُ العامُّ ؛ الذي اسمُه الصَّومُ ، ومعناه : « قانونُ البطن » .

ألا ما أعظمَكَ يا شهرَ رمضان ! لو عَرَفَكَ العالَمُ حقَّ معرفتِك ؛ لسَمَّاكَ : « مدرسة الثَّلاثين يوماً » .

* * *

= صائماً فلا يرفث ، ولا يجهل ، وإن امرؤٌ قاتله ، أو شاتمه ؛ فليقل : إني صائم ، إني صائم » .

« الجُنَّة » : الوقاية يتقي بها الإنسان ، والمراد : أن يعتقد الصَّائم أنَّه قد صام ليتقي شرَّ حيوانيته ، وحواسّه . فقوله : « إني صائم ، إني صائم » أي : إنَّني غائبٌ عن الفحش ، والجهل ، والشَّرِّ ؛ إني في نفسي ، ولستُ في حيوانيتي . (ع) .

قلت : الحديث رواه البخاري (١٨٩٤) ومسلم (١١٥١) .